

أدب الرحلة: حرباء متغيرة اللون وزئبق عصي على المسك

ثلاثة باحثين مغاربة يقرأون النصوص الرحلية المعاصرة



الرحالة اليوم مختلف تماما عن السابقين (لوحة للفنان بسيم الريس)

ولقاء علمائها وشخصياتها الثقافية والروحية.

وقد دون هؤلاء في يومياتهم ما شرد فكأن بعضها مكررا ومألوقا، وبعضها الآخر جديدا كل الجدة ومثيرا للقارئ والسامع في المغرب، وقد أسهمت هذه الكتابات إلى أبعد حد في تكوين صورة مصر والمشرق في المخيال المغربي. بل إن كتب الحجارة فلم يفوت هؤلاء الرحالة، على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية ومرجعياتهم الفكرية ومشاربهم الروحية، الفرصة للتحقق في مصر والوصول إلى القاهرة لزيارة معالمها السياحية والعمرانية

على وجه التحديد، لما لهذا البلد من دور محوري ومركزي في نصوص الرحالة المغربية خلال العصر الحديث والمعاصر.

وتتف هذه الدراسة على التاريخ السياسي والاقتصادي والثقافي لمصر في ضوء يوميات الرحالة المغربية الذين شكلت مصر بالنسبة إليهم محطة إجبارية، في سياق رحلاتهم إلى الحجاز، فلم يفوت هؤلاء الرحالة، على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية ومرجعياتهم الفكرية ومشاربهم الروحية، الفرصة للتحقق في مصر والوصول إلى القاهرة لزيارة معالمها السياحية والعمرانية

الحكاية الموجزة المكثفة، والريوريات الصحافية أو المقالة التاريخية أو الفكرية أو العلمية..

صورة مصر

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تتناول صورة المشرق العربي في كتابات الرحالة المغربية خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، متخذة من مصر نموذجا. وهي إذ ترصد تاريخ العلاقات المغربية المشرقية، إنما تفعل ذلك من خلال استجداء الصورة التي ترسخت في أذهان الرحالة المغربية عن مصر

من منظور جديد يرصد قضايا هذا الأدب وخصائصه الفنية وتحولات الرواية إلى الآخر، ونظرة الرحالة إلى ذاته من خلال هذه الرؤية المتغيرة، بما في ذلك قراءته المستجدة للاختلاف الحضاري، والتي تكشف لنا هذه الدراسة أنها ابتعدت كثيرا عما كانت عليه في نصوص الرحلة العربية إلى أوروبا في العصر الكولونيالي، خصوصا لدى رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن الماضي.

إنها الرحلة ما بعد الكولونيالية في زمن العولمة، إذن، وتذهب الدراسة في قراءتها لرؤية الذات في علاقته بالآخر لتشتمل ما هو أبعد جغرافيا مما كانت عليه حتى الربع الأول من القرن الماضي، حيث اقتضت الرحلات عموما على أوروبا والولايات المتحدة، بصورة أساسية، فتناولت الدراسة يوميات رحالة وصلوا إلى اليابان والهند وأمريكا اللاتينية.

وتكشف الدراسة عن ظواهر وقضايا وإشكاليات إنسانية جديدة رافقت ظهور العولمة واتساع رقعتها، لتشتمل العالم كله، وتجعل من نصوص الرحالة الجدد، من ثم، متونا للغوص في الذات، وتفجير أسئلتها الوجودية، بما يجعل الشعري يوشح تلك الأسئلة، وتحيل البحث في الآخر إلى بحث فلسفي معرفي، ما دامت العولمة قد كشفت كل بقعة من بقاع العالم مهما كانت صغيرة أو بعيدة، ولم يعد هناك من الجغرافيات والأقوام والظواهر ما يمكن أن يكتشف بالمعنيين الإنثوغرافيين والأنثروبولوجيين، وهو ما جعل الرحالة يتحول إلى شاعر وفيلسوف وقارئ ظواهر جوال أكثر تعقيدا وتركيبا.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما لاحظته الدارس محمد المسعودي من سمات فنية مستجدة في نص الرحلة المعاصرة "بحيث تتنوع المحافل السردية وغير السردية في صياغة خطاب الرحلة، وبناء عوالمها السردية التي يمزج فيها النخبيلسي بالتسجيلى (التوثيقى)، ويرتبط فيها التاريخى بالأسطوري، والمعطى الدينى بالبعد الفكرى والعلمى، والجغرافى بالسيسى.. وأخذت الرحلة شكل السيرة الذاتية أو اليوميات، والسرد القصصى أو

رغم أهميته البالغة مازال أدب الرحلة العربي يواجه نوعا من التهميش في تناوله سواء بالكتابة فيه أو عنه، أو بتحقيق رحلات سابقة. ولكن الاهتمام يتزايد تدريجيا بهذا الأدب الذي قدم للمدونة العربية نصوصا تاريخية وأدبية غاية في الأهمية، كما يستقطب اليوم الكثير من الكتاب الذين أضافوا إليه أشكالاً ومواضيع أخرى.

وتفكك الدراسة النص الرحلي بنية وتكويناً، وتستدرج إلى نظرتها المعرفية العميقة هذه البنية المرآوية لتنتج منها معرفة نظرية، فكرية وأدبية وجمالية، تشكّل مقترحا جديدا يمكن لقراء هذا الجنس الأدبي ودارسيه أن يستضيؤوا به، بينما هم يقبلون على النص الرحلي درسا له أو استمناعا به. فإدب الرحلة، كما تقترح هذه الدراسة، لم يتج له درس متعدد الأوجه يليق باستقلاليته وكماله، ويكافئ خصوصيته كادب أجدت الثقافة العربية الحديثة بحقه، وأهمته حتى وقت قريب.

وليس من المبالغة أن يعبر واسطي عن استغرابه ودهشته جراء استمرار هذا الحيف على إثر جولة له مع كتابات باحثين عرب سبقوه إلى درس أدب الرحلة، وقد ساق هذا الموقف في مقدمة بحثه.

ويلقى على ما ذهب إليه الدارسون الذين "صنوا كامل جهدهم من الجهد في دراسة الرحلة باعتبارها وثيقة تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية"، مضيفا "بيد أننا نعتقد أن هذا الجنس الأدبي، متغير اللون كالحرباء وعصى المسك كالزئبق، يتناول أوتار المفعول التاريخي أو الجغرافي أو الاجتماعي ويلعب عليها".

ويدرس كتاب "الرحلة ما بعد الكولونيالية في الأدب العربي المعاصر قضاياها وخصائصها الفنية" أدب الرحلة المعاصر من خلال يوميات الرحالة من الأدباء العرب المعاصرين، وبينهم عدد ممن ظهرت نتاجاتهم عبر مشروع "ارتداد الأفاق"، وحازوا

على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة، وهي كتابها "مدني وأهواي"، وخليخ النعيمي في كتابها "الحج إلى هاري دوار"، وباسم فرات في رحلته اللاتينية، وكمال الرياحي في كتابها "واحد - صفر للقتل" وآخرين. وتأتي هذه الدراسة، وهي قراءة نصية،

عواد علي
كاتب عراقي

أعدت جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة الاعتبار لجنس أدبي غاية في الأهمية، لا كوثيقة تاريخية فحسب، بل كنص أدبي جمالي، علاوة على قيمته الفكرية والنقافية.

الرحلة المعاصرة أخذت أشكال السيرة الذاتية واليوميات والقصص أو الحكاية المكثفة والريوريات الصحافية أو المقالة

وقد أسفرت الجائزة، فرع الدراسات، في دورتها التاسعة عشرة لعامي 2020 و2021، عن ثلاثة كتب مهمة لباحثين من المغرب هي "الرحلة نسق أنساق: مقاربات تاريخية وإبستمولوجية" للدكتور بوسيف واسطي، "الرحلة ما بعد الكولونيالية في الأدب العربي المعاصر قضاياها وخصائصها الفنية" للدكتور محمد المسعودي و"في كتابات الرحالة المغربية خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين" للدكتور ربيع عوادى.

الزئبق والحرباء

ليس من السهل على قارئ "الرحلة نسق أنساق: مقاربات تاريخية وإبستمولوجية" أن يختصر في تعريف هذه الدراسة ذات الطابع الشمولي والمركزي في أن، والتي تعتمد استراتيجيات بحثية جديدة استمدت واستوعبت مناهج فريضة متعددة في منهجها الأوسع لقراءة أدب الرحلة فراهنا أراد لها صاحبها أن تكون غير مسبوق، انطلاقا من النظر إلى أدب الرحلة بوصفه نصا مرويا تتكسر عليه أشعة العيون القارئة، وتعيد تشكيل رؤيتها وقراءتها ومنهجها في القراءة من خلال تلك العلاقة بنص فريد الطابع، هو نص الباحث صاحب هذه الدراسة الجديدة والطريفة والقيمة في أن.

فتية عرب اكتشفوا أميركا قبل كولومبوس

في السن وتعرف الكثير من أسرار رحلة الفتية المكتشفين، حيث تحبر الدكتور سعد وليسا أن هذه الجزيرة ما هي إلا إحدى المحطات التي توقفت عندها سفن هؤلاء الفتية قبل ألف عام. ويقدم الدكتور عمران مقارنة سياسية عبر روايته هذه، فالدكتورة حمدان تتعرض للكثير من التهديدات ومحاولات الإغتيال من تنظيمات سرية تديرها الجديدة التي جاءت بعنوان "الفتية وصلوا إلى السواحل الأمريكية وعاشوا سوية مع الهنود الحمر وتزوجوا معهم، بل وإن الفينقيين أيضا وصلت سفنهم إلى سواحل وجز العالم الأثار.

ويذكر أن الرواية تقع في 152 صفحة من القطع المتوسط، أما مؤلفها الدكتور طالب عمران فهو أستاذ في كلية الهندسة المدنية بجامعة دمشق وحاصل على درجة دكتوراه في الهندسة التفاضلية والفلك من جامعة عليكرة الهندية، كما أنه عضو في اتحادي الكتاب والصحافيين العرب وفي الجمعية السورية لتاريخ العلوم، ويرأس تحرير مجلة الخيال العلمي، وصدر له أكثر من 100 كتاب مطبوع في مجال الدراسات والروايات ومجموعات القصص من الخيال العلمي.

دمشق - تذكر بعض كتب التاريخ أن فتية عربا أبحروا في القرن العاشر الميلادي من ميناء في الأندلس، منطلقين عبر رحلة جريئة شقت عباب المحيط الأطلسى وتوصلوا إلى اكتشاف الولايات المتحدة قبل كولومبوس بنحو خمسة قرون.

هذه الحكاية سعى الأديب طالب عمران إلى تأكيدها من خلال روايته الجديدة التي جاءت بعنوان "الفتية وصلوا إلى السواحل الأمريكية وعاشوا سوية مع الهنود الحمر وتزوجوا معهم، بل وإن الفينقيين أيضا وصلت سفنهم إلى سواحل وجز العالم الأثار.

وبأسلوبه المعهود يقدم عمران روايته من حيث المزج بين الحاضر والماضي البعيد وبناء مشهدية درامية للعمل تتسم للقارئ بأن يتخيل الحدث يجري أمامه، ولاسيما أن الحوار بين الشخصيات يهيمن على أغلب مفاصل الرواية.

بطلا الرواية الدكتور سعد وليسا وهي المرأة التي أحبها برافقان في رحلة من دمشق إلى نيويورك، وتشاء الأقدار أن تهبط طائرتهما اضطراريا جراء عطل فني قرب أحد جزر الأطلسى، وحين ينزلان منها مع باقي الركاب يتعرفان على الدكتورة ليلى الحمدان وهي سيدة مثقفة متقدمة

العرب في متاهة الدفاع عن الذات ونسيان الآخر

الباحثين، مما يحتم على المعنيين بالمشروع الثقافي العربي أن يتسلحوا بالموضوعية في تقييم المشهد الثقافي الذي يعيننا على خوض خطاب مفاخرة سليم.

وتداخل الباحث الدكتور حسام الغفوري بسؤالين، الأول ما دور الأدب المقارن في بناء الهوية الثقافية العربية؛ والثاني هل خطفنا من الحضارة الغربية الزاهية الأضواء من المثقفين العرب؛ أما الدكتورة ريماء مقطش فقد أثار موضوع المديونية المعرفية والثقافية وأثرها في تعزيز العمل المقارن، مؤكدة على وجودها، ومستشهادة بالكوبيديا الإلهية لدائتي في تأثره باني العلاء المعري.

واختتم مدير الندوة الدكتور نضال الشمالي الحديث بالوقوف على فكرة أن العرب في العصر الحديث كانوا مضطربين لتقصم دورين، دور المدافع عن حضارته وتراثه، ودور المبادر الذي عليه أن يقدم وينهض، فوقعوا في إشكالية الدفاع عن الذات وبالغوا في ذلك، وكان إقناع الآخر بمقدرات الأنا مسألة شديدة الأهمية، مغفلين استكمال جهود المقارنين العرب الأوائل سليمان البستاني، وقسطاكي الحمصي، ومحمد روضي الخالدي، وقدموا عليها متابعة المنجز الغربي في المقارنات في شكلها الفرنسي، أو الأميركي، أو السلافي دون التفكير في المنافسة، وإضافة ما هو نافع.

الذي يصب في الموضوع الرئيسي الذي يقصده الكتاب وهو تاصيل الإسهام الحقيقي لهذا المجال في تأسيس رؤى ومركزات حضارية تستند إلى التأسيسات الجوهرية.

المثقفون العرب المعنيون بالثقافة والمقارنة فشلوا في اختراق العقل الغربي وترويج المنتجين الأدبي والفكري العربيين

وأسهمت مداخلات الحضور في إضفاء السمة الحوارية على الندوة، فناقشت الباحثة دعاء سلامة مسألة الاستشراق وتبادل المعرفة في ظل الصورة النمطية التي رسمها الغرب للشرق. وقدم الناقد الدكتور زياد أبولين وجهة نظره في مسألة التمرس المركزية في الطرح، سواء أكانت مركزية عربية إسلامية أم أوروبية، فالثقافات في طبيعتها تتداخل، ولا توجد ثقافة خالصة مستقلة، وهذا ما يتكسف وهم المركزية في دراسات الثقافة وحوار الحضارات.

وانتقد الباحث الدكتور مراد بياري، في مداخلة، حالة القديس المطلقة للتراث العربي الإسلامي، وحالة الانتعاش المطلقة منه في كتابات بعض

بين الحضارة العربية وقريناتها في ذلك الوقت: اليونانية والفارسية والهندية، دون مخاوف الهوية والاستلاب. تطبيقا لمبدأ التعارف القرآني.

ثم أشار عباس إلى دور المثاقفة والتفاعل كعامل مغير لثقافة الفرد والمجتمع والمؤسسات، ويلوم الكاتب على المثقفين العرب، المعنيين بالمثاقفة والمقارنة، عدم قدرتهم على اختراق العقل الغربي، وترويج ونشر المنتج الأدبي والفكري العربيين، أو إشعار الغرب بأهمية الثقافة العربية الكلاسيكية والمعاصرة. وفي السياق نفسه، تطرق الباحث إلى قدرة إسرائيل على معرفة دقائق الأمور السياسية والفكرية والثقافية العربية، على العكس من العرب الذين لا يعرفون إلا الحد الأدنى من الشأن الإسرائيلي تحت حجج واهية.

وعقب المؤلف على القراءة المستفيضة التي قدمها توفيق، مؤكدا على جدارة الموضوع وحساسيته في إبراز مشروع عربي في الأدب المقارن بدأ مع البستاني في ترجمته للإبادة هوميروس، ومع قسطاكي الحمصي في كتابه "علم الانتقاد"، ومحمد روضي الخالدي في كتابه "علم الأدب عند العرب والإفرنج وفيتكتور هوجو". ونبه إلى دور المقارنين العرب كمحمد غنيمي هلال، وحسام الخطيب وعزالدين المناصرة،

عسان - نظمت جمعية النقاد الأردنيين، بالتعاون مع مكتبة الأرشيف التابعة للمركز العربي للأبحاث ودراسات التنمية، مؤخرا، ندوة نقدية ناقشت فيها كتابا للباحث عباس عبدالحليم عباس عنوانه "خطاب المثاقفة وحوار الحضارات: قرن من الدراسات الأدبية والنقدية العربية المقارنة"، بوصفه يندرج ضمن مقولات الأدب المقارن والدراسات الثقافية المعاصرة.

قدم الدكتور زهير توفيق رئيس الجمعية وأستاذ الفلسفة في جامعة فيلادلفيا قراءة في الكتاب بين فيها أنه كتاب ذو طابع أكاديمي يتوافق والدراس الجامعي، واستعرض موضوعاته الرئيسية الموزعة على ستة فصول، موضحا أن الباحث

اعتمد المنهج التاريخي الوصفي، وانطلق بداية من التنويه والتساؤل عن أهمية المثاقفة، كونها جوهر الأدب المقارن، ومنه تفرغت مجموعة الأسئلة والنسائلات المعرفية المفتاحية المقارنة. وسلط الباحث الضوء على إسهامات الرواد في الأدب المقارن، وخاصة محمد روضي الخالدي، الذي هضمت الدراسات المؤرخة لأدب المقارن، حقه في الريادة، ثم انطلق إلى التراث، مستعرضا التفاعل الحضاري والمثاقفة